المَبحَثُ الرّابع

فِقهُ العُلوم، عِندَ الإسماعيلِيَّةِ وَالفَلاسِفةِ وَالمَناطِقة

أ. إخوانُ الصَّفا، فِي رَسائِلِهِم:

كانتِ الحَرَكَةُ الشّيعِيَّةُ الإسماعيلِيَّةُ نَشيطةً في المَشرقِ وَمِصرَ وَإفريقِيَة، في القرنِ الرّابعِ الهجريّ؛ تَعملُ دائِمًا وَأبَدًا على خَلقِ أنموذَجٍ دينِيٍّ وَفِكريٍّ مُخالِفٍ تَمامَ المُخالَفةِ لِلأنموذَجِ السُّنِّيّ، وَقبلَ ذالِكَ أيضا.

وَقد رَأى رِجالُ هاذا المَذهَب، أنَّ استِقطابَ المُثقّفِينَ وَإقناعَهُم وَإغراءَهُم بِهِ، لا يَتِمُّ إلاّ باستِثمارِ العُلومِ المُتَداوَلَةِ وَقتَئِذ، وَإدماجِها في مَشروعِهِ الفِكريّ، وَلاسِيَما "عُلومِ الأوائِل"، أيِ الفَلسَفَةِ وَما يَتبَعُها.

وَقد تَبَيَّنَ هاذا جَلِيًّا في "رَسائِلِ إخوانِ الصَّفا"، حَيثُ جُمِعَتِ الرَّسائِلُ جَمعًا يُراعي ما ذَهَبوا إلَيهِ مِنَ القَولِ بِتَقسيمِ العُلوم، وَجُعِلَتِ العُلومُ كُلُّها مَدخَلاً لِـ"طَلَبِ الحِكمَة"؛ وَهُوَ ما يَتَدَيَّنُ بِهِ الإسماعيلِيّون، لِتَسخيرِها لِلقَولِ بِالإمامَةِ الإسماعيلِيَّة، وَهُوَ بَيتُ القَصيدِ عِندَهُم.

في الرِّسالَةِ الأولى مِنَ القِسمِ الرِّياضِيّ، الَّتي هِيَ حَجَرُ الزّاوِيَةِ في الرَّسائِلِ كُلِّها، نَقرَأُ أنَّهُ:

"لَمّا كانَ مِن مَذهَبِ إخوانِنا الكِرام... النَّظَرُ في جَميعِ عُلومِ المَوجوداتِ الَّتي في العالَم... اِحتَجنا أن نُقَدِّمَ هاذِهِ الرِّسالَة، لِكَيما يَسهُلَ الطَّريقُ عَلى المُتَعَلِّمينَ إلى طَلَبِ الحِكمَةِ الَّتي تُسَمّى الفَلسَفَة... فَنَقول:

الفَلسَفَة: أوَّلُها مَحَبَّةُ العُلوم، وَأوسَطُها مَعرِفَةُ حَقائِقِ المَوجودات... وَءاخِرُها القَولُ وَالعَمَلُ بِما يُوافِقُ العِلم.

وَالعُلومُ الفَلسَفِيَّةُ أربَعَةُ أنواع: أوَّلُها الرِّياضِيّات، وَالثّاني المَنطِقِيّات، وَالثّالِثُ العُلومُ الطَّبيعِيّات، وَالرّابِعُ العُلومُ الإلاهِيّات.

فَالرِّياضيّاتُ أربَعَةُ أنواعٍ: أوّلُها الأرثماطيقِيّ، وَالثّاني الجومَطريا، وَالثّالِثُ الأسطرُنوميا، وَالرّابِعُ الموسيقى..."[377]

وَبالرَّغمِ مِنَ الاعتِناءِ الهائِلِ بـ"العُلومِ الفلسَفِيَّة"، وَالإهمالِ المَلحوظِ لِلعُلومِ الشَّرعِيَّةِ، فَإنَّهُم، مَعَ ذالِكَ، أدرَجوهَا في نَسَقِهِمُ الفِكريّ، وَجَعَلوا العُلومَ أجناسًا تَتَدَرَّجُ فيها أنواعٌ. قالوا:

"فَصلٌ في أجناسِ العُلومِ:

وَإذ قد فَرَغنا مِن ذِكرِ ماهِيَّةِ العُلوم، وَأنواعِ السُّؤالات ... فَنُريدُ أن نَذكُرَ أجناسَ العُلومِ، لِيَكونَ دَليلاً لِطالِبي العِلمِ إلى أغراضِهِم ... فَاعلَم بِأنَّ العُلومَ الّتي يَتَعاطاها البَشَرُ ثَلاثَةُ أجناسٍ: فَمِنها الرِّياضِيَّة، وَمِنها الشَّرعِيَّةُ الوَضعِيَّة، وَمِنها الفَلسَفِيَّةُ الحَقيقِيَّة.

فَالرِّياضِيَّةُ هِيَ عِلمُ الآدابِ الّتي وُضِعَ أكثَرُها لِطَلَبِ المَعاشِ، وَصَلاحِ أمرِ الدُّنيا. وَهِيَ تِسعَةُ أنواعٍ:

أوّلُها عِلمُ الكِتابَةِ وَالقِراءَة. وَمِنها عِلمُ اللُّغَةِ وَالنَّحو، وَمِنها عِلمُ الحِسابِ وَالمُعامَلات، وَمِنها عِلمُ الشِّعرِ وَالعَروض...

فَأمّا أنواعُ العُلومِ الشَّرعِيَّةِ الّتي وُضِعَت لِطِبِّ النُّفوس، وَطَلَبِ الآخِرَة، فَهِيَ سِتَّةُ أنواعٍ: أوّلُها عِلمُ التَّنزيل، وَثانيها عِلمُ التَّأويل، وَالثّالِثُ عِلمُ الرِّواياتِ وَالأخبار، وَالرّابِعُ عِلمُ الفِقهِ وَالسُّنَنِ وَالأحكام، وَالخامِسُ عِلمُ التَّذكارِ وَالمَواعِظِ وَالزُّهدِ وَالتَّصَوُّف، وَالسّادِسُ عِلمُ تَأويلِ المَنامات.

فَعُلَماءُ التَّنزيل، هُمُ القُرّاءُ وَالحَفَظَة، وَعُلَماءُ التَّأويل، هُمُ الأئِمَّةُ وَخُلَفاءُ الأنبياء، وَعُلَماءُ الرِّوايات، هُم أصحابُ الحَديث، وَعُلَماءُ الأحكامِ وَالسُّنَن، هُمُ الفُقَهاء، وَعُلَماءُ التَّذكارِ وَالمَواعِظ، هُمُ العُبّادُ وَالزُّهّادُ وَالرُّهبان، وَمَن شاكَلَهُم، وَعُلَماءُ تَأويلِ المَنامات، هُمُ المُعَبِّرون.

وَأمّا العُلومُ الفَلسَفِيَّة، فَهِيَ أربَعَةُ أنواعٍ: مِنها الرِّياضِيّات، وَمِنها المَنطِقِيّات، وَمِنها الإلاهِيّات..."[378]

بَيدَ أنَّ العُلومَ كُلَّها، إنَّما هِيَ "ءالةٌ لِلعُلومِ الإلاهِيَّة"، مِثلما إنَّ العُلومَ اللُّغويَّةَ وَالمَنطِق، إنَّما هِيَ ءالةٌ لِلعُلومِ الشَّرعِيَّةِ عِندَ أهلِ السُّنَّة:

"وَاعلم يا أخي، أيَّدَكَ اللَّهُ وَإيّانا بروحٍ مِنه، بأنَّ غَرَضَ الفَلاسِفَةِ الحُكَماءِ مِنَ النَّظَرِ في العُلومِ الرِّياضِيَّة، وَتَخريجِهِم تَلامِذَتَهُم بِها، إنَّما هُوَ السُّلوكُ وَالتَّطَرُّقُ مِنها إلى عُلومِ الطَّبيعِيّات.

وَأمّا غَرَضُهُم مِنَ النَّظَرِ في الطَّبيعِيّات، فَهُوَ الصُّعودُ مِنها وَالتَّرَقّي إلى العُلومِ الإلاهِيَّة، الَّذي هُوَ أقصى غَرَضِ الحُكَماء، وَالنِّهايَةُ الَّتي إلَيها يُرتَقى بِالمَعارِفِ الحَقيقِيَّة."[379]

وَعَلى امتِدادِ "رَسائِلِ إخوانِ الصَّفا"، فَإنَّ الحَديثَ عَنِ العُلومِ وَأقسامِها، لا يَتِمُّ إلاّ بِالحَديثِ عَمّا وَراءَها، أو فَلسَفَتِها، وَبِالحَديثِ عَن فائِدَتِها، وَرَبطِها "بِتَهذيبِ النَّفس، وَإصلاحِ الأخلاق".

وَمَعَ كُلِّ المَرجِعِيَّةِ الفَلسَفِيَّةِ وَالمَنطِقِيَّةِ لِإخوانِ الصَّفا في رَسائِلِهِم، وَتَقسيمِهِمُ الدَّقيقِ لِلعُلوم، فَإنَّهُم لَم يَخلوا مِن استِمدادٍ لِلتُّراثِ السُّنِّيِّ في "ءادابِ العِلم"، فَتَحَدَّثوا في "فَضلِ طَلَبِ العِلم"،[380] وَ"شَرَفِ العِلم"، وَاستَدَلّوا عَلى هاذا بِالآياتِ وَالأحاديثِ وَالآثار. كَما تَحَدَّثوا في صِفاتِ طالِبِ العِلمِ وَالعُلَماء،[381] وَجَعَلوا الآخِرَةَ غايَةَ العِلم، فَلَم يُخالِفوا أهلَ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ في شَيءٍ مِن "ءادابِ العِلم". قالوا:

"وَاعلم يا أخي، بِأنَّ كُلَّ عِلمٍ وَأدَبٍ لا يُؤَدّي صاحِبَهُ إلى طَلَبِ الآخِرَة، وَلا يُعينُهُ عَلى الوُصولِ إلَيها، فَهُوَ وَبالٌ عَلى صاحِبِه، وَحُجَّةٌ عَلَيهِ يَومَ القِيامَة."[382]

وَيَظهَرُ أنَّ تَوَجُّهَ إخوانِ الصَّفا إلى الاِشتِغالِ بِالعُلومِ وَنَظَرِيَّتِها، وَلا سِيَما "عُلومِ الأوائِل"، كانَ أصلَ تَوَجُّهِ الفَلاسِفَةِ الإسلامِيّينَ إلى الاِشتِغالِ بِها.

ب. أبو نَصرِ الفارابيّ، (-339هـ)، وَمَشروعُ إحصاءِ العُلوم، وَتَبيينِ فَضيلَتِها:

كَتَبَ أبو نَصرِ الفارابيّ، (-339هـ)، كِتابَهُ الشّهير، "إحصاءَ العُلوم"، فَدَخَلَ بِعَمَلِهِ هاذا بابَ تاريخِ نَظريَّةِ العِلمِ الإسلاميَّة، مِنَ البابِ الواسِعَة. وَقَد وَضَعَ أبو نَصرٍ لِنَفسِهِ غاياتٍ واضِحَة، لِكِتابِهِ هاذا، هِيَ مِحوَرُ تَفكيرِهِ في نَظريَّةِ العِلم؛ سَطَّرَها في طالِعَةِ كِتابِهِ الرّائِد. يَقول:

"قَصدُنا في هاذا الكِتاب، أن نُحصِيَ العُلومَ المَشهورَةَ عِلمًا عِلما، وَنُعرِفَ جُمَلَ ما يَشتَمِلُ عَلَيهِ كُلُّ واحِدٍ مِنها، وَأجزاءَ كُلِّ ما لَهُ مِنها أجزاء، وَجُمَلَ ما في كُلِّ واحِدٍ مِن أجزائِه."[383]

ذالِكَ أنَّ العُلومَ كانَت في القَرنِ الثّالِثِ وَبِدايَةِ الرّابِع، قَد تَكاثَرَت، حَتّى أصبَحَ مِنَ الضَّروريِّ القِيامُ بِجَردٍ أو "إحصاءٍ" لَها، كَما أنّا كانَت قَد تَفَرَّعَت إلى "أجزاء"، كَما صارَ التَّفكيرُ فيها وَفي تَفاريعِها، أو "أجزائِها"، في ذاتِهِ عِلمًا مُستَقِلاً؛ يُلحَقُ بِعُلومِ الفَلاسِفَة.

وَقَد رَدَّ أبو نَصرِ الفارابيُّ كُلَّ العُلومِ إلى سِتَّةِ أقسام. يَقول:

"الأوَّل: في عِلمِ اللّسانِ وَأجزائِه.

وَالثّاني: في عِلمِ المَنطِقِ وَأجزائِه.

وَالثّالِث: في عُلومِ التَّعاليم. وَهِيَ العَدَدُ وَالهَندَسَة، وَعِلمُ المَناظِر، وَعِلمُ النُّجومِ التَّعليمِيّ، وَعِلمُ الموسيقى، وَعِلمُ الأثقال، وَعِلمُ الحِيَل.

وَالرّابِع: في العِلمِ الطَّبيعِيِّ وَأجزائِه، وَفي العِلمِ الإلاهِيِّ وَأجزائِه.

وَالخامِس: في العِلمِ المَدَنِيِّ وَأجزائِه.

وَ[السّادِس]: في عِلمِ الفِقه، وَعِلمِ الكَلام."[384]

وَلا جَرَمَ أنَّ مَبدَأَ المُشابَهَةِ وَالمُشاكَلَةِ في مَوضوعِ العِلم، حاضِرٌ في هاذا "الإحصاء" التَّصنيفِيّ. فَعُلومُ اللُّغَةِ هِيَ صِنفٌ قائِمُ الذّاتِ عِندَه. بَيدَ أنَّ مَبدَأ المُشابَهَةِ المَوضوعِيَّةِ لا يَتَحَقَّقُ دائِما. فَمِنَ الصَّعبِ أن نَرى تَشابُها مَوضوعِيًا

فِي مَوضوع عِلم الموسيقى وَعِلم المَناظِر، في صِنفِ عِلم التّعاليم، أو في الصِّنفِ الرّابع، أي "في العِلم الطّبيعيّ وَأجزائِه، وَفي العِلم الإلاهِيّ وَأجزائِه".

وَمِثلَما كانَتِ الغايَةُ مِنَ الكِتابِ واضِحَة، أي إحصاءَ العُلوم، كانَت فائِدَةُ الإحصاء، أو "مَنفَعَتُه"، واضِحَة كَذالِكَ عِندَه. يَقول:

"يُنتَفَعُ بِما في هاذا الكِتاب، لأنّ الإنسان، إذا أرادَ أن يَتَعَلّمَ عِلمًا مِن هاذِهِ العُلوم، وَيَنظرَ فيه، عَلِمَ عَلى ماذا يُقدِم، وَفي ماذا يَنظُر، وَأيَّ شَيءٍ سَيُفيدُ بِنَظَرِه، وَما غَناءُ ذالِك، وَأيَّ فَضيلَةٍ تُنالُ بِه، لِيَكونَ إقدامُهُ عَلى ما يُقدِمُ عَلَيهِ مِنَ العُلوم، عَلى مَعرِفَةٍ وَبَصيرَة..." 385

إنّ مَنفَعَةَ "الإحصاءِ"، إحصاءِ العُلومِ، لا تَتَوَقّفُ عِندَ هاذا الحَدّ، لأنّ لِلعُلومِ "مَراتِبَ" عِندَ المُوازَنَةِ بَينَها، مِن حَيثُ الفَضلِ وَالمَنفَعَة، وَالإتقان وَالقُوّةِ وَالضّعف". يَقول:

"وَبِهاذا الكِتاب، يَقدِرُ الإنسانُ عَلى أن يُقايِسَ بَينَ العُلوم، فَيَعلَمَ أيُّها أفضَل، وَأيُّها أنفَع، وَأيُّها أتقَن، وَأوثَقُ وَأقوى، وَأيُّها أوهَن، وَأوهى وَأضعَف". 386

كَما أنّ لَها مَنفَعَةً أخرى، وَهِيَ مَنفَعَةٌ اختِيارِيَّةٌ تَربَوِيَّة، وَأخرى اجتِماعِيَّة، أيِ الالتِحاقُ بِهَيئَةِ "أهلِ العِلم". 387

بَيدَ أنّهُ لم يُبَيِّن لَنا أيَّ العُلومِ أوثَق، وَلا أيُّها أوهَن. وَيَظهَرُ أنّ "الأوثَق"، هُوَ ما كَتَبَ عَنه، وَبَيَّنَ "أجزاءَه"، وَأنّ "الأوهَن" مِنها، هُوَ ما سَكَتَ عَنه.

وَإذا كانَ أهلُ السُّنّةِ قَد طَرَحوا مَفهومَ "شَرَفِ العِلم"، في كِتاباتِهِم، فَإنّ لأهلِ الفَلسَفَةِ الإسلامِيَّة، مَفهومًا ءاخَرَ يُوازيه أو يُعادِلُه. هاكَذا نَجِدُ أبا نَصر الفارابِيّ، يَطرَحُ مَفهومَ "فَضيلَةِ العُلوم" في رِسالَةٍ خاصّةٍ بِهاذا المَوضوع، سَمّاها بِهاذا الاِسم. يَقول:

"فضيلةُ العُلومِ والصِّناعاتِ، إنَّما تكونُ بإحدى ثلاث: إمّا بشَرَفِ المَوضوعِ، وإمّا باستِقصاءِ البَراهين، وإمّا بعِظَمِ الجَدوى الّذي فيه، سَواءٌ كانَ مُنتَظرًا أو مُحتَضرًا." [388]

إنَّ "فضيلَة" العِلم، إذن، إنَّما هِيَ مَفهومٌ تَنظيميٌّ تَفاضُليٌّ، يَفترِضُ أنَّ العُلومَ مُتَفاضِلَةٌ مِن حَيثُ الأهَمِّيَّة، وأنَّها لَيسَت سَواءًا. إنَّها إذن "مَراتِب"، باصطِلاحِ أهلِ الفَلسَفَة. [389]

وَهاكَذا، فصَّلَ الفارابيُّ هاذِهِ المَراتِبَ المُتَفاضِلَة، فَقالَ:

"أمّا ما يَفضُلُ على غَيرِه، لِعِظَمِ الجَدوى الّذي فيه، فَكَالعُلومِ الشَّرعِيَّة...
وَأمّا ما يَفضُلُ عَلى غيرِه، لاِستِقصاءِ البَراهينِ فيه، فَكَالهَندَسَة.

وَأمّا ما يَفضُلُ عَلى غيرِه، لِشَرَفِ مَوضوعِه، فَكَعِلمِ النُّجوم.

وَقَد تَجتَمِعُ الثَّلاثَةُ كُلُّها، أو الاثنانِ مِنها، في عِلمٍ واحِدٍ، كَالعِلمِ الإلاهِيّ." [390]

وَمِنَ الطَّريفِ أن نَلحَظَ عِندَ أبي نَصرٍ الفارابِيّ، أنَّ العُلومَ الشَّرعِيَّة حاضِرَةٌ عِندَه، إلاّ أنَّ أعلاها مَرتَبَةً عِندَه، هُوَ العِلمُ الإلاهِيّ، لا الشَّرعِيّ، لأنَّهُ يَفضُلُ غَيرَهُ لاِجتِماعِ فَضيلَتَينِ فيه، أو حَتّى ثلاث، كَما رَأينا.

وَيَظهَرُ أنَّ ابنَ سينا، (428هـ) الّذي عاشَ في بيئَةٍ إسماعيلِيَّة، قَد طَوَّرَ مَشروعَ أبي نَصرٍ الفارابِيّ، في "إحصاءِ العُلوم"، فَكَتَبَ في نَفسِ المَوضوع، رِسالَةً تَحَدَّثَ عَنها بإعجابٍ طاش كُبري زادَة، (968هـ). قالَ عَن عِلمِ "تَقاسيمِ العُلوم":

"وَهُوَ عِلمٌ باحِثٌ عَنِ التَّدرُّجِ مِن أعَمِّ المَوضوعاتِ إلى أخَصِّها، لِيُحَصِّلَ بذالِكَ مَوضوعَ العُلومِ المُندَرِجَةِ تَحتَ ذالِكَ الأعَمّ. وَلَمّا كانَ أعَمَّ العُلومِ مَوضوعًا العِلمَ الإلاهِيّ، جَعَلَ تَقسيمَ العُلومِ مِن فُروعِه، وَيُمكِنُ التَّدرُّجُ فيهِ مِنَ الأخَصِّ إلى الأعَمّ، عَلى عَكسِ ما ذُكِر، لاكِنَّ الأوَّلَ أسهَلُ وَأيسَر. وَمَوضوعُ هاذا العِلمِ،

وَالغايَةِ وَالغَرَضُ مِنه، وَمَنفَعَتُهُ كُلُّها، لا يَخفى عَلى أَحَد. وَصنَّفَ ابنُ سينا في هاذا العِلمِ رسالَةً لَطيفَة."[391]

ت. إبنُ النَّفيس، (-687هـ) مِنَ "الإحصاء" إلى "التَّعديد"، وَمِن "فَضيلَةِ العُلوم"، إلى "أشرَفِ العُلوم":

أثَّرَتِ التَّفاعُلاتُ الفِكريَّةُ في دار الإسلام السُنِّيَّة، في القَرنَيْنِ السّادِسِ وَالسّابعِ الهِجريّ، بسَبَبِ الغَزاليَّةِ وَعَوامِلَ تاريخيَّةٍ أخرى، في خَلقِ نَوعٍ مِنَ التَّقارُبِ بَينَ أهلِ الفَلسَفَةِ وَبَينَ أهلِ الشَّريعَةِ وَالكَلام، فَصارَ كُلٌّ مِنهُما يَستَفيدُ مِن ءالِيّاتِ صاحِبِهِ الفِكريَّة، وَغَزا المَنطِقُ دارَ عُلَماءِ السُّنَّة، وَداخَلَ الفِقهَ وَعِلمَ الكَلام. وَمُقابِلَ هاذا، غَزا التَّفكيرُ السُّنِّيّ، دارَ الفَلاسِفَة، وَمَن في مَعناهُم. وَيَتَمَثَّلُ هاذا التَّقارُب، في كِتابِ "المُختَصَر، في عِلمِ أصولِ الحَديث"، لابنِ النَّفيس. (-687هـ).

ألَّفَ ابنُ النَّفيس في الطِّبِّ وَالفَلسَفَة، وَأشياءَ أخرى. وَهاذا لا يُفاجِئُنا. لاكِنَّهُ أيضًا ألَّفَ في عِلمِ الحَديث، كَما يُؤَلِّفُ أيُّ عالِمٍ مِن عُلَماءِ السُّنَّة، خِلافًا لِعادَةِ أهلِ الفَلسَفَة.

وَلِكَي يُمَهِّدَ لِـ" عِلمِ أصولِ الحَديث"، كَتَبَ ابنُ النَّفيس، الطَّبيبُ المُتَفَلسِف، مُقَدِّمَةً نَظَريَّةً في هاذا العِلم، عُنوانُها: "في تَعديدِ العُلوم، وَبَيانِ شَرَفِ هاذا العِلم".[392] يَقول:

"إنَّ العُلوم، عَلى كَثرَةِ تَفَنُّنِها، تَنحَصِرُ في قِسمَيْن: عُلومٍ سَمعِيَّة، وَعُلومٍ عَقلِيَّة.

فَالعُلومُ السَّمعِيَّة، هِيَ الَّتي تُستَعمَلُ في حُجَجِها المُقَدِّماتُ المَسموعَة، وَالعُلومُ العَقلِيَّة، هِيَ الَّتي تَقتَصِرُ في حُجَجِها عَلى المُقَدِّماتِ العَقلِيَّة، كَالطِّبِّ وَالهَندَسَةِ وَنَحوِها، بِخِلافِ العُلومِ السَّمعِيَّة، فَإنَّها تَستَعمِلُ المُقَدِّمَةَ السَّمعِيَّةَ وَالعَقلِيَّةَ مَعًا."[393]

ثُمَّ طَفِقَ يُفَصِّلُ ما أجمَلَهُ مِن أمرِها، عَلى سَبيلِ الاختِصار. وَهُوَ في هاذا التَّقسيم، يَتَنَكَّبُ طَريقَةَ أهلِ الفَلسَفَةِ في التَّقسيم، وَيَعتَمِدُ طَريقَةَ أهلِ السُّنَّة.

وَعلى مِثالِ القُدماء، فاضَلَ ابنُ النَّفيس بَينَ العُلوم، مُنطلِقًا مِن مَنظور سُنّيٍّ في هاذا التَّفاضُل. وهاكَذا، فَعِلمُ الكَلام: "هُوَ أَشرَفُ العُلوم"، أي العُلوم الشَّرعيَّة.[394]

وَبِهاذا، تَصيرُ إلاهيّاتِ الفارابيّ، مَخلوفَةً بِعِلمِ الكَلامِ السُّنّيّ. بَيدَ أنَّهُ تَراجَع، فَأكَّدَ أنَّ العُلومَ الشَّرعيَّة "مُتَقارِبَةٌ في الشَّرَف".[395] ثُمَّ استَثنى، فَقال:

"لاكِنَّ عِلمَ الحَديثِ أَشرَفُها، لأنَّ سَعيَهُ لِذاتِ الأشياءِ وَلأنبائِها، بِخِلافِ الأُصوليِّ وَالجَدَليِّ، فإنَّهُما يَنظُرانِ في هاذِهِ الأشياء، لِيَتَبَيَّنا كَيفيَّةَ استِعمالِها في شَيءٍ ءاخَر."[396]

ثُمَّ رَأى وَجهًا ءاخَرَ لِتَفضيلِ عِلمِ الحَديث، فَقال:

"وَالأُصولُ وَالجَدَلُ وَالفِقه، إنَّما تَنتَفِعُ بِكَلامِ النَّبيّ، (ص)، وَبِأفعالِهِ وَتَقريراتِه، بَعدَ ثُبوتِ صِحَّةِ ذالِكَ بِعِلمِ الحَديث. لِذالِكَ كانَت هاذِهِ العُلومُ جَميعُها، مُفتَقِرَةً إلى هاذا العِلم، فَهُوَ أَشرَفُ مِنها بِهاذا الوَجهِ أيضا."[397]

وَمَهما يَكُن "الأشرَفُ" مِنَ العُلوم، فَإنَّ أرسطو قَد اضمَحَلَّ عِندَ ابنِ النَّفيس، حَتّى تَوارى، وَوَطِئَ أرضَهُ المُحَدِّثُ السُّنّيّ. فَقَد أصبَحَتِ الدَّولَةُ وَقتَئِذٍ لِأهلِ السُّنَّة.

ث. إبنُ الأكفانيّ، (-749هـ) العُلومُ الذّاتيَّة، وَالعُلومُ الغَيريَّة، وَأُصولُ نَظَريَّةِ "رُؤوسِ العِلم":

وَعلى غِرارِ تَوَجُّهِ ابنِ النَّفيس، سارَ أبو عَبدِ اللّه، مُحَمَّدُ بنُ إبراهيمَ الأنصاريُّ السِّنجاريّ، المَعروفُ بابنِ الأكفانيّ، (-749هـ). فَقَد كانَ مِثلَهُ رَجُلًا مِن أهلِ الفَلسَفَةِ وَالطِّبّ، وَيَعيشُ في مِصر، وَهِيَ دارُ أهلِ السُّنَّة، في القَرنِ الثّامِنِ الهِجريّ. بَيدَ أنَّ تَفكيرَهُ لَم يَقتَصِر عَلى عِلمٍ واحِد. بَل سَعى إلى التَّفكير في العُلوم، عَلى وَجهِ العُموم، مَعَ تَوظيفِ المَرجِعيَّةِ الفَلسَفيَّة، في تَطوير نَظَريَّةِ العِلمِ السُّنّيَّة. يَقولُ بَعدَ الحَمدَلَةِ وَالصَّلاةِ مُباشَرَة، في طالِعَةِ كِتابِه:

"وبَعد: فإنَّ بنا حاجَة إلى تكميل نفوسِنا البَشَريَّة، في قواها النَّظريَّةِ وَالعَمَليَّة، إذ كانَ ذالِكَ هُوَ الوَسيلَة إلى السَّعادَةِ الأبَديَّة.

ولَمّا كانَ هاذا، إنَّما يَتمُّ بالعِلم بحَقائِقِ الأشياء، عَلى ما هِيَ عَلَيه، لِيُعتَقَدَ الحَقّ، ويُفعَلَ الخَير، وَجبَ عَلَينا أن نَعلَمَ العِلمَ المُتَكَفِّلَ بتَحقيق الحَقائق، وَما هُوَ إلَيهِ كَالوَسائِل، وَما يَشتَمِلُ عَلى بَيانِ ما يَجِبُ أن يُقصَدَ مِنَ الفَضائِل، وَيُتَجَنَّبَ مِنَ الرَّذائِل.

فأردتُ أن أذكُرَ في هاذِهِ الرِّسالَة، أنواعَ العُلومِ عَلى التَّفصيل، لِيَتَبَيَّنَ مِنها الغَرَض."[398]

وبَعدَ هاذِهِ المُقدِّمَة الفَلسفيَّة، الَّتي تَنظر، وَلا شَكّ، إلى "إحصاءِ العُلوم"، لأبي نَصر الفارابيّ، وتَنقُلُ مِنهُ باللَّفظ، دونَ إحالَة[399]، مَعَ شَيءٍ مِنَ الاختِصار، عَقَدَ فَصلاً "في شَرَفِ العِلمِ وَالعُلَماء"،[400] أحالَ فيهِ عَلى القُرءان وَالسُّنَّة، وكَلام السَّلَف، وَعَلى أفلاطونَ أيضا.[401] وَلَخَّصَ فيهِ كَذالِكَ كَلامَ الفارابيّ.

ثُمَّ عَقَدَ فَصلاً في "القَول فِي التَّعليم وَالتَّعَلُّم وَشُروطِهِما"؛ يُذَكِّرُ مَضمونُهُ بمَضمونِ بَعض فُصول مُقَدِّمَة "الأزهار الطَّيِّبَةِ النَّشر". فَكانَ خِطابُهُ هاذا تَمهيدًا لِنَظريَّةِ المَبادِئ العَشر.

بَيدَ أنَّ هاذِهِ النَّظريَّة عِندَه، لَمّا تَكُن قَد نَضِجَت عِندَهُ نُضوجا. يَتَحَدَّثُ ابنُ الأكفانيِّ عَن هاذِهِ المَبادِئ، حَديثَ المُدرِكِ لَها، فَيَقول:

"وَرَتَّبوا في صَدرِ كُلِّ كِتاب، تَراجِمَ تُعرِبُ عَنه، سَمَّوها الرُّؤوس. وَهِيَ ثَمانِيَة:

الغَرَضُ وَالمَنفَعَة، وَالسِّمَة وَالواضِع، وَنَوعُ العِلم، وَمَرتَبَة ذالِكَ العِلم، وَتَرتيبُه، وَنَحوُ التَّعليمِ المُستَعمَل فيه."[402]

وَقَد شَرَحَ هاذِهِ "الرُّؤوس"، أو "المَبادِئ"، شَرحًا مُقتَضَبا.[403]

وَعِندَنا أنَّ نَظَرِيَّةَ "الرُّؤوس" الثَّمانِيَة، أصلٌ جَلِيٌّ لِنَظَرِيَّةِ "المَبادِئ العَشر"؛ لا يُمكِنُ تَجاهُلُها عِندَ البَحثِ عَن أصولِها وَطبيعَتِها.

وَكَما قامَ الفارابِيُّ بِـ"إحصاءِ العُلوم"، مُقَسِّمًا إيّاها إلى أقسام، عَقَدَ ابنُ الأكفانِيِّ فَصلاً في "القَولِ في حَصر العُلوم"،[404] وَقَسَّمَها إلى قِسمَيْنِ كَبيرَيْن: لأنَّ "كُلَّ عِلم، فَإمّا أن يَكونَ مَقصودًا لِذاتِه، أو لا".[405]

فَالعُلومُ الذّاتِيَّة، أو المَقصودَةُ لِذاتِها، فَهِيَ "العلومُ الحِكمِيَّة"، وَهِيَ كَذالِكَ قِسمان: حِكمِيَّة نَظَرِيَّة، بِما تَشتَمِلُ عَلَيهِ مِن عِلمِ إلاهِيّ، وَعِلمٍ وَطبيعِيٍّ وَرياضِيّ،[406] وَحِكمِيَّة عَمَلِيَّة، بِما تَشتَمِلُ عَلَيهِ مِن عِلم السِّياسَةِ وَالأخلاق وَتَدبيرِ المَنزل.[407]

وَأمّا العُلومُ الغَيرِيَّة، أو المَقصودَةُ لِغَير ذاتِها، فَهِيَ "العلومُ الآلِيَّة". يَقول:

"وَأمّا الثّاني، وَهُوَ ما لا يَكونُ مَقصودًا لِذاتِه، بَل ءالَة لِغَيرِه، فَإمّا لِلمَعاني، وَهُوَ عِلمُ المَنطِق، وَإمّا لِما يُتَوَصَّلُ بِهِ إلى المَعاني مِنَ اللَّفظِ وَالخَطّ، وَهُوَ عِلمُ الأدَب".[408]

وَيَقصِدُ بِهِ كُلَّ عُلومِ اللِّسان.[409]

هاذا، وَلابنِ الأكفانِيِّ، تَقسيمٌ ءاخَرُ ثُنائِيٌّ لِلعُلوم، إلى "خَفِيَّة" وَ"جَلِيَّة"، لَم يُوَضِّحهُ تَمامًا في مُقَدِّمَةِ الكِتاب.[410]

وَمِنَ المَلحوظِ أنَّ ابنَ الأكفانِيِّ، في تَرتيبِهِ لِلعُلوم، بَدَأ بِالقِسمِ الثّاني، أي العُلومِ الغَيرِيَّة، وَلا سِيَما "عِلمُ الأدَب"، قَبلَ أن يُثَنِّيَهُ بِعِلمِ المَنطِق.

ثُمَّ رَجَعَ إلى القِسمِ الأوَّل، أي "العُلومِ الذّاتِيَّة"، أو "المقصودَةِ لِذاتِها"، فَبدَأ بالعِلمِ الإلاهِيّ.[411] ويَتفَرَّعُ عِندَهُ مِنهِ الفَلسَفَة، على الطَّريقَةِ اليونانِيَّة،[412] والتَّصَوُّف،[413] وءاراءُ الفِرَقِ والمِلَلِ والنِّحَل[414].

أمّا العُلومُ الشَّرعِيَّة[415]، فَسَمّاها "عِلمَ النَّواميس".[416] وعَدَّدَ مِنها عُلومَ القِراءات، والحَديثِ والتَّفسير، و"دِرايَةِ الحَديث"، أو عِلمَ أصولِ الحَديث، وعِلمَ "أصولِ الدّين"، أو عِلمَ الكَلام، وأصولَ الفِقه، والجَدَل، وعِلمَ الفِقه،

ثُمَّ رَجَعَ بَعدَ هاذا، إلى "العلومِ الحِكمِيَّة"، ولاسيَما الحِكمِيَّة النَّظَرِيَّة، والحِكمِيَّةِ العَمَلِيَّة،[417] مِنَ الطِّبِّ إلى تَدبيرِ المَنزل، مُرورًا بالسِّحرِ والسّيمِياءِ والموسيقى، وغَيرِ هاذا. وهُوَ ما نَفتَقِدُهُ في كِتابِ "الأزهارِ الطَّيِّبَةِ النَّشر" تَماما.

ج. إبنُ تومَرتَ الأندَلُسِيّ، وغايَــةُ العِلــم:

وَفي الغَربِ الإسلامِيّ، نَجِدُ ابنَ تومَرتَ الأندَلُسِيّ، (-391هـ)، يُخَصِّصُ كِتابًا في نَظَرِيَّةِ العِلم؛ يُسَمّيه: "كَنزَ العُلوم، والدُّرَّ المَنظوم، في حَقائِقِ عِلمِ الشَّريعَة، ودَقائِقِ عِلمِ الطَّبيعَة". بَيدَ أنَّهُ جَعَلَ العِلمَ قِسمَينِ اثنَينِ فَقَط، ورَبَطَ العِلمَ بالتَّصَوُّفِ والفَلسَفَة. قالَ فيه:

"الحَقُّ أنَّ أفضَلَ العُلوم، المَعرِفَةُ باللّه، عَزَّ وجَلّ. وَهِيَ مَقصودُ كُلِّ عِلم، وثَمَرَتُهُ ولُبُّ لُبابِه. وجَميعُ العُلومِ النّافِعَة، مُندَرِجَةٌ تَحتَ عِلمِ الشَّريعَة، وعِلمِ الطَّبيعَة.

أمّا عِلمُ الشَّريعَة، فَهُوَ عِلمُ الدّينِ القَيِّمِ الشّافي مِن داءِ مَعصِيَةِ المَلِكِ العَلاّم. وَهُوَ مَندوبٌ إليهِ شَرعا...

وَمَقصودُ الحِكمَة، حَقائِقُ عِلمِ الشَّريعَة، وتَنزيهُ اللّه، سُبحانَهُ وتَعالى، عَمّا سِواه. فَذالِكَ هُوَ حَقيقَةُ العِلم، وقَصدُ المُرادِ مِنه. واللّهُ أعلَم.

وَأمّا عِلمُ الطَّبيعَة، فَهُوَ عِلمُ الحِكمَةِ الّذي كَتَبَهُ اللّهُ بيدِ قُدرَتِه، وَأبدَعَ فيهِ مُختَرَعاتِ صَنعَتِه، لِيَدُلّ بِذالِكَ عَلى حَقيقَةِ مَعرِفَتِه... وَمَقصودُ الحِكمَة، مَعرِفَةُ ما أودَعَ اللّهُ في عِلمِ الطَّبيعَة."[418]

وَعَلى طَريقَةِ إخوانِ الصَّفا، وَقَبلَ أبي حامِدٍ الغَزّالِيّ، (-505هـ) جَعَلَ ابنُ تومَرتَ الأندَلُسِيُّ غايَةَ العِلمِ الشَّرعِيّ، الوُصولَ إلى المَعرِفَةِ الباطِنِيَّة. قال:

"أمّا البِدايَة، فَهِيَ العِلمُ المَشروعُ بِالباطِن. وَهُوَ عِلمُ الحَقيقَة. وَهُما مُتَلازِمان، مُتَّفِقانِ عَلى الشَّريعَةِ ظاهِرًا وَباطِنا، لِأنَّهُ لا بُدَّ لِكُلِّ بِدايَةٍ مِن نِهايَة، وَلِكُلِّ ظاهِرٍ مِن باطِن، كَما لا بُدَّ لِكُلِّ حَقٍّ مِن حَقيقَة. وَلَهُما ماهِيَّة وَكَيفِيَّة وَكَمِّيَّة."[419]

ح. أبو الحَجّاج، يوسُفُ ابنُ طُملوسَ الأندَلُسِيّ، (620هـ-) وَإرهاصاتُ بِدايَةِ نِهايَةِ العِلمِ في الأندَلُس:

ثُمَّ نَجِدُ في الغَربِ الإسلامِيّ، أبا الحَجّاج، يوسُفَ ابنَ طُملوسَ الأندَلُسِيّ، (-620هـ) يُعَبِّرُ بِوُضوحٍ عَن كَونِ العُلومِ أقساما. بَيدَ أنَّهُ في تَصَوُّرِهِ لَها، لا يَخرُجُ عَن تَصَوُّرِ مَن سَبَقَه، وَلا سِيَما ابنَ حَزم. يَقول:

"فَنَظَرتُ إلى العُلومِ الّتي [يُؤَلِّفُ فيها[420]] النّاسُ الآن، مِن عُلومِ الشَّرعِ وَما يَتَعَلَّقُ بِه، وَيَتَقَدَّمُهُ عَلى جِهَةِ التَّوطِئَةِ لَه، أو الآلَة، فَرَأيتُ كِتابَ اللّهِ تَعالى قَد شَرَحَهُ النّاس، وَكَثُرَت فيهِ التَّآليف، حَتّى لا مَزيدَ عَلَيها.

وَكَذالِكَ حَديثُ رَسولِ اللّه، (ص). قَد كَثُرَت فيهِ التَّآليف، وَفي شَرحِه، وَفيما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِن مَعرِفَةِ نَقَلَتِه، رَضِيَ اللّهُ عَنهُم، وَفي غَيرِ ذالِك، مِمّا هُوَ مِنه، أو يُحتاجُ إلَيه، كَأُصولِ الدّين، وَأُصولِ الفِقهِ وَفُروعِه.

وَكَذالِكَ رَأيتُ العُلومَ الّتي يَنبَغي أن تَتَقَدَّمَ عُلومَ الشَّرعِ في التَّرتيبِ وَالتَّعليم، كَعُلومِ العَرَبِيَّة، وَهِيَ عِلمُ النَّحوِ وَعِلمُ اللُّغَة، وَما يَنضافُ إلَيها، كَالرَّسائِلِ وَالأشعارِ وَالخُطَب، وَما يَتَعَلَّقُ بِهاذِه، كَالعَروض؛ احتاجَهُ الشِّعر، [كَذا]، فَرَأيتُ جَميعَ هاذِهِ العُلومِ قَدِ اعتُنِيَ بِها، وَأُلِّفَ فيها تَآليفُ لا تُحصى عِدَّةً ...

وَكَذالِكَ نَظرتُ إلى العُلومِ القديمَة، أعني الَّتي هِيَ مُشتَرَكَة في جَميعِ الأمَمِ، وَجَميعِ المِلَل، وَهِيَ الَّتي تُنسَبُ إلى الفلسَفة، أو تُسَمّى الفلسَفة، فَرَأيتُ أكثرَها أو كُلَّها بِوَجهٍ ما، قَد تَعاطاها عُلماءُ الإسلام، وَأكثروا فيها التَّأليف. وَذالِكَ مِثلَ عُلومِ الطِّبِّ وَما يَتَعَلَّقُ بِه، وَيُذكَرُ مَعَهُ بِوَجهٍ ما مِن عُلومِ الطَّبائِع.

وَذالِكَ أنَّ عِلمَ الطِّبِّ يُشارِكُ عِلمَ الطِّباع بِوَجهٍ ما، وَيُفارِقُهُ بِوَجهٍ ءاخَر. وَرُبَّما يَنفَرِدُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما بِالنَّظَر في شَيءٍ ما خاصَّة. وَهاذا يَعرِفُهُ مَن زاوَلَ العِلمَين.

وَكَذالِكَ عِلمُ الهَندَسَةِ وَالعَدَدِ وَالتَّنجيمِ وَالموسيقى، حَتّى إنَّ عُلَماءَ الإسلامِ قَد بَرَّزوا في هاذِهِ العُلومِ المُتَقَدِّمين ..."[421]

ثُمَّ يَعرِضُ عَرضًا مُباشِرًا لِإشكالِ التَّأليفِ في العُلومِ الشَّرعِيَّة، وَقيمَةِ التَّأليف، وَالجَديدِ فيها عَلى زَمَنِه. يقول:

"فَمَن انتَصَبَ بَعدَ ذالِكَ إلى تَأليفٍ في شَيءٍ مِن هاذِهِ الأمور، فَإنَّ الَّذي يَأتي بِه، إنَّما هُوَ تَكريرٌ وَفَضل؛ اللَّهُمَّ إلاّ أن يَقصِدَ بِتَأليفِهِ جَودَةَ (التَّحقيق[422])، كَما نَجِدُ الآنَ في عِلمِ الفِقهِ وَعِلمِ النَّحو".[423]

ثُمَّ يَعرِضُ تَصَوُّرَهُ لِلمُؤَلِّفِ في العِلمِ في زَمَنِه، ضارِبًا المَثَلَ بِعِلمِ النَّحوِ وَالفِقه، قائِلاً إنَّهُ:

"يُهَذِّبُ أو يَقصِدُ إلى الاختِصار، وَاطِّراح الحَشوِ الَّذي لا يُفيد، أو إلى تَلخيصِ المَعاني الطَّويلَة، الَّتي تَتَّفِقُ مِن قِبَلِ العِبارات، فَيُقَرِّبُها، أو إلى شَرحِ ما استُغلِق. فَإنَّ المُؤَلِّفَ الَّذي يَذكُرُ ما سَبَقَ غَيرُهُ إلَيه، وَلَم يَأتِ بِهِ [كَذا] لِأحَدِ هاذِهِ الوُجوهِ المَذكورَة، فَهُوَ مَنسوبٌ إلى جَهلٍ أو فَضلٍ [كَذا] أو شِرارَة.

وَإذا اعتَبَرتَ حالَه، لَم تَنحَلَّ مِن هاذِهِ الأمورِ الثَّلاثَةِ الَّتي عَدَدناها."[424]

وَهاذا شَبيهٌ بِما عَرَضَ لَهُ الشَّيخُ ابنُ الحاجّ، في نَقلِهِ كَلامَ ابنِ عَرَفَةَ الوَرغَمِيِّ في المَوضوع، في مُقَدِّمَةِ "الأزهار الطَّيِّبَةِ النَّشر".[425]

421